

المحاضرة: غاستون باشلارد والابستمولوجية اللاديكارتية

عرف باشلار بأنه فيلسوف القطيعة الابستمولوجية والعقلانية، حيث تعتبر عقلانيته التطبيقية، التي تتشكل داخل الممارسة العلمية، عقلانية تختلف عن العقلانيات التقليدية، فهي تنشأ الانفتاح والقابلية على المحاور تطبيق، والقدر ولا تقبل إلا بالعقل مصدر لتشكلها فتكون بعيدة عن كل عقلانية قبلية. فهذه العقلانية المعرفي أنه يعبر عن نفسه، لا في فلسفة بالنسبة لباشلار هي مصدر الإنتاج أحادية الجانب، فهي فلسفة مزدوجة هي بالذات فلسفة الإنتاج المعرفي العلمي، فالإنتاج المعرفي العلمي، يستند في تكوينه إلى عقلانية مختلفة عن كل العقلانيات السابقة، عقلانية تتشكل داخل هذا الممارسة العلمية، بعدا عن كل معرفة سابقة. عقلانية شكلت وعيا بأزمة التفاوت بين العلم والفلسفة، هذا ما أدى بباشلار إلى رفض العقلانيات التقليدية، وحتى فلسفات العلم، كونها فلسفات لا تتوفر على الشروط الصحيحة.

يشير باشلار إلى أن هذه الممارسة العقلانية، لا تتكون بعيدا عن مرجعياتها التاريخية والواقعية فهي تخضع لقيم الواقع العلمي أكثر من الواقع الساذج اللاعلمي، فهذه القيم لا تكون خارج المجال العلمي، خاصة تلك القيم الفلسفية من مثالية، فهذه الأخير في نظر باشلار لم تعد قادرة على المسايرة القفزة العلمية والمعلوماتية المعاصرة، هذا وإن كان للمثالية دور مهم في الفلسفات الطبيعية خلال القرن التاسع عشر، كما أنه من غير الممكن لهذه المثالية تكوين عقلانية تمتلك من القدر الفعالة على بلورة قيم علمية وتجريبية جديدة، فالمثالية بقدر ما تعجل من نسقها لكل حقيقة، بقدر ما ترفض كل انفتاح وإنشاء قطيعة مع هذه الماضوية الفكرية فهي بالنسبة للفكر العلمي عائق فكري ومنهج عقيم.

كما يرفض باشلار الوضعانية والتخلي عن مبادئ الضرورة، فللوضعانية علاقة بالعقلانية التخلي عن مبادئ الضرورة و التجريبية، لهذا فإن الوضعانية الخالصة لا تستطيع تبرير المقدرة الاستنتاجية العاملة على تطوير النظريات التجريبية، كما انها لا تمتلك المقدرة على تأدية حساب قيم الترابط المميزة للطبيعات المعاصرة، فهذه الوضعانية وإن كانت مرحلة ممهدة للعقل العلمي، إلا أنها لو تعد تكفي لهذه العقلانية العلمية التي يؤسس عليها باشلارد. لهذا فالوضعانية تعمل على رفض التخمينات و الاوهام، فهي تحمي تخوم العلم من الأهواء والذاتيات.

يركز باشلارد لتأسيس لعقلانيته العلمية المنفتحة، على ذلك التأسيس الذي تمارسه العقلانية داخل الحقل العلمي، من خلال تفاعلاتها مع كل ما هو جديد علمي فهي وليدة الموضوعية العلمية والعلم الجديد، فهي ترفض كل فلسفة مثالية متعالية أو الخضوع لفلسفة تمارس عليها الحماية والخضوع، إنها فلسفة تنشد الانفتاح والسيرورة، إنها فلسفة متمردة ومتحررة من كل وصاية لهذا فإن "المعرفة العلمية هي يمكن أن تنتظر معرفة موضوعية من حيث أنها بالذات كذلك، مما يعني بأنها ليست ولا يمكن أن تنتظر لأي تأسيس أو ضمان خارجي".

إن الغاية التي يروجها باشلار من عقلانيته هي ربطها بالواقع، مع التأكيد على مكانة العقل فهو عقل منفتح غير جامد، يؤمن بالنسبية وعدم التسليم للكمال النهائي، بل يجب وضعه تحت المراجعة دائما، مع إعادة قراءته لمبادئه، كما أنه يجب مسايرة نتائج العلم المعاصر، ولهذا تكون عقلانيته، عقلانية علمية قابلة للتطبيق مع التأكيد على الانفتاح فهي على الدوام في سجال مع حركة العلم ومفاهيمه المستجدة، مع حضور البعد الاستمولوجي للقراءة النقدية لنتائج مبادئ العقل خاصة المنظومة المفاهيمية التي يؤسس لها لهذا فإن العقل لن يكون بعيدا عن التأسيس لهذه المفاهيم، فهو مبدعها.

يجعل باشلار من عقلانيته عقلانية نفي للعقلانيات الكلاسيكية ومتجاوزة لها في نفس الوقت فالحركية التي شهدها العلم من تجاوز لنظريات علمية إلى وقت قريب كانت من المسلمات، على غرار الفيزياء النسبية المتجاوزة للفيزياء النيوتونية الكلاسيكية ، والهندسة اللاقليدية التي تجاوزت الهندسة الاقليدية وظهر الكوانتا، كل هذه الحركية دفعت العقل إلى قراءة لمفاهيمه وضرورة مسايرة حركية العلم المتسارعة، لذا نجد باشلار يرفض كل سكون وانغلاق على عقلانية لا تقبل التفتح، وفي هذا الصدد يقول: " إن هذه العقلانية المطبقة، هذه العقلانية التي تسترجع التعاليم التي قدمها الواقع لكي تترجمها إلى برنامج تنفيذي تتمتع في نظرنا بامتياز جديد حقا. فبنظر هذه العقلانية المستقبلية/الاستكشافية المختلفة جدا عن العقلانية التقليدية" إنها عقلانية تهدف الاستكشاف ورفض كل تحجر عقلانية تفتح على شتى العلوم والفلسفات.

خصائص العقلانية البشاردية:

1- **تطبيقية:** اتسم العلم عند باشلار بالعقلانية التطبيقية، والصرامة العلمية في تناول مباحث العلم، لذا حاول المزج بين عقليين إن صح التعبير، عقل رياضي يتصف بالصبغة النظرية المحضة، وعقل علمي تطبيقي ذو صبغة تجريبية، من دون أن يوقعنا في تناقض.

يبين لنا باشلار أن العملية الانتقالية التي تمارسها لابستيمولوجيا، تتم من العقلي إلى الواقعي وليس عكسيا، أو بمعنى آخر فالعقلانية التطبيقية تسلك مسار من الداخل إلى الخارج من العقل إلى الواقع، بخلاف العقلانية التجريبية التي تتطلق من الخارج إلى الداخل أو بمعنى آخر من الواقع إلى العقل، يؤكد باشلار على تلك العلاقة الترابطية الموجودة بين التطبيق والعلمية والموضوعية، فل يمكننا القول أن العقلانية موضوعية، إلا إذا كانت قابلة للتطبيق حيث أن العقلانية تكون ذات قيمة موضوعية عن طريق تطبيقاتها لهذا لم يعد

الحكم على الفكر العلمي، استنادا لعقلانية شكلية، بل المطلوب منا هو بلوغ عقلانية محسوسة، مرتبطة دائما بخبرات خصوصية.

2- متفتحة:

تعتبر العقلانية الباشلاردية أنموذج للفلسفة المفتوحة، الفلسفة الثورية التي ثارت ضد الفلسفات العقلانية التجريبية الكلاسيكية، فلسفات حصرت المعرفة الإنسانية في تلك الحدود التجريبية وصورنة الفكرية ومنطقية اللغة، هذا ما جعل أنصار الفلسفة المفتوحة، يصورون العقلانية التجريبية المنطقية على أنها فلسفة دوغمائية تحصر العلم في حدود العلم، مع عدم تجاوز القضايا التحليلية، والقضايا التجريبية، فكل ما يقع خارج التجربة هو مجرد كلام فارغ بلا معنى. ومن هذا الوضع القائم الذي أرسته العقلانية التجريبية، أصبح من الضروري على العقلانية الجديدة، أو ما يعرف بعقلانية فلسفة العلم التحرر من هذه القيود والانفتاح على أفاق المعرفة. وإيجاد فلسفة غير تقليدية تمتلك قيم المحاوراة والتفتح على باقي الفلسفات.

إن الانفتاح أصبح ضروري في العقلانية العلمية المعاصرة التي تعتبر ثورة على العقلانية الكلاسيكية، التي جعلت من العقل صنما أكثر منه مبدعا، حيث أنه من الضروري عقليا نبذ كل تأليه لعقل أي نبذ كل عقل مطلق ومغلق وكتف بذاته. ويجب عليها أن نأخذ بعين الاعتبار إمكانية تطور العقل. إن العقل ظاهرة تطويرية لا تتقدم بصورة متصلة، كما كانت تظن ذلك نوعية العقلانية القديمة، بل إن العقل يتطور عبر طفرات وإعادة تنظيم عميقة، فبعد ما سادت فكرة صنمية العقل، منذ عقود، حلت فكرة أن العقل ذو سمة تطويرية التي فرضت نفسها على العلماء والباحثين.